



رواية " 2020 الحياة في زمن الموت " لنور الدين محقق: من " الحياة في زمن الموت "
إلى: "الموت في زمن الحياة" قراءة في الوجود من خلال الأحداث

Noureddine Mohakkak's 2020 Life in the Time of Death: From "Life in the Time of Death" to
"Death in the Time of Life" — An Existential Reading Through Events

رقية منظور Rokya Mandour

طالبة باحثة في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء الدار البيضاء

rkiamandour@gmail.com

ملخص:

تتناول هذه الدراسة رواية " 2020 الحياة في زمن الموت " للكاتب المغربي والناقد نورالدين محقق من منظور وجودي وسيميائي، بهدف الكشف عن الكيفية التي أعاد بها النص الروائي بناء دلالة الموت بوصفه تجربة إنسانية ورمزا ثقافيا يتجاوز معناه البيولوجي المباشر، وتنطلق الدراسة من تحليل البنية السردية والشخصيات والفضاءات الروائية، مع التركيز على الثنائيات الحياة والموت، والحضور والغياب، والعزلة والتواصل، والواقع والتخييل، للكشف عن الأبعاد الفكرية والجمالية التي ينتجها النص، وتخلص الدراسة إلى أن الرواية تحول تجربة جائحة -19 من حدث تاريخي إلى فضاء للتأمل في قضايا الهوية والحرية والذاكرة والإبداع، حيث يغدو الإبداع فعلا لمقاومة الموت، وتتحول العزلة إلى فرصة لإعادة اكتشاف الذات وفكرية تعكس قدرة الأدب على استيعاب الأزمات الإنسانية وإعادة تأويلها.

الكلمات المفتاحية: رواية 2020 الحياة في زمن الموت؛ نورالدين محقق؛ الموت؛ الوجودية، السيميائيات؛ جائحة كوفيد-19؛ الإبداع؛ الذاكرة؛ السرد الروائي.





Abstract :

This study examines *Life in the Time of Death* by the Moroccan writer and critic Nouredine Mohaqqaq through an existential and semiotic perspective. It aims to explore how the novel reconstructs the concept of death as a human experience and a cultural symbol that transcends its biological meaning. The analysis focuses on the narrative structure, characters, and fictional space, highlighting the binary oppositions of life and death, presence and absence, isolation and communication, and reality and fiction in order to reveal the novel's philosophical and aesthetic dimensions. The study concludes that the novel transforms the COVID-19 pandemic from a historical event into a narrative space for reflecting on identity, freedom, memory, and creativity.

Creativity emerges as an act of resistance against death, while isolation becomes an opportunity for self-discovery and the production of meaning. Consequently, the novel demonstrates the capacity of literature to reinterpret human crises and to offer profound existential and artistic insights.

Keywords: *Life in the Time of Death*; Nouredine Mohaqqaq; Death; Existentialism; Semiotics; COVID-19 Pandemic; Creativity; Memory; Narrative Fiction.

مقدمة:

شكلت ثيمة الموت إحدى أكثر القضايا حضوراً في الأدب الإنساني، لما تثيره من أسئلة وجودية تتصل بمعنى الحياة، وحدود الوجود، وإمكانات الإنسان في مواجهة الفناء. غير أن الرواية الحديثة لم تعد تتعامل مع الموت بوصفه حدثاً بيولوجياً فحسب، بل جعلته بنية رمزية وثقافية تتداخل مع قضايا الهوية والحرية والاعتراق والبحث عن المعنى. وقد ازدادت هذه الأسئلة حضوراً مع جائحة كوفيد-19 التي فرضت واقعا استثنائياً أعاد تشكيل علاقة الإنسان بالحياة والموت معا.

وتتدرج رواية «الحياة في زمن الموت» للكاتب والناقد نور الدين محقق ضمن هذا السياق، إذ تستثمر تجربة الجائحة لتقديم رؤية فلسفية وجمالية تتجاوز تصوير الوباء بوصفه أزمة صحية، لتجعله مدخلا للتأمل في الذات الإنسانية وقدرتها على مقاومة العزلة والخوف عبر الإبداع والحب والذاكرة. ومن هذا المنطلق، تسعى هذه المقالة إلى تحليل الكيفية التي أعاد بها الكاتب بناء دلالة الموت داخل المتن الروائي، والكشف عن الأبعاد السيميائية





والوجودية التي تحكم تشكل الشخصيات والأحداث، مع بيان الوسائل السردية التي حولت زمن الموت إلى فضاء لإعادة اكتشاف الحياة وإنتاج المعنى.

-اغتراب الذات المبدعة ومقاومة الموت:

1-اضطراب الذات وصعوبة التأقلم مع زمن كوفيد 19

إن أول "مؤل" ¹⁷ يلتقطه المتلقي من السارد تصديره في كل فصول الرواية لمقولات فلسفية وأدبية مستعارة من زمن يتأمل فيه السارد أحداثا تؤدي به إلى حياكة وقفاته التأملية بتبصر فكري، يستوحي من خلاله السارد الخيوط الرابطة بين المدار المحوري للرواية زمن الموت { زمن كوفيد 19 } ، والمدارات السياقية المتفرعة عنها، فتكاد تلك المقولات تجمع على أن صوت السارد يوشي باغتراب الذات السردية في العالم لاسيما في زمن كوفيد 19، إذ يصرح في مستهل الرواية مقولة عن الكاتب كافكا تنصه بأن العالم الذي في رأسه أكبر من العالم الذي رأسه فيه، فنفهم من ذلك أن حيز الوجود وما يشمله العالم من أحداث ومن مدركات ومحسوسات، لا يسع الحمولات الفكرية المخزنة في ذهن السارد، ما يجعل الذات تحس بالاغتراب عن العالم الذي تعيش فيه، فتلوذ إلى العالم المتخيل حيث الذات المبدعة تتفنن في نسج إمكانات من العوالم أكبر حجما من العالم الذي يحيا فيه الإنسان، ويلمح الكاتب في روايته بالتحديد إلى تلك الفجوة العميقة التي كبرت وامتدت في زمن الوباء بفعل التخوف من فقدان الحياة، فتتحول الحياة بالنسبة للسارد إلى تجربة فنية يعاد فيها النظر إلى علاقات ومواقف استرجاعية من الواقع وذكريات بطعم التفاؤل المستمر، ورغم من القيود الاحترازية في فترة الحظر، فإن الرواية تؤكد على أن إمكانيات الذات المتخيلة أكبر من خطر الموت ووجوده.

¹⁷نظر سعاد بن السوسي، السيميائيات ومشروع الدلالة المفتوح ، الطبعة الأولى 2018 ، الصفحة : 60





يبدأ السارد روايته بالحديث عن البؤرة التي انبثق منها مصدر الوباء بلاد الصين بمنطقة وهان، حيث يجعل من الشخصية المحورية يحيى الذي اشتق اسمه من الحياة للدلالة على تحدي زمن الموت، فشخصية يحيى محبة للحياة ومن طموحاتها في تلك الفترة السفر إلى الصين للمشاركة في ندوة حول الأدب العربي، والانشغال بالترجمة إلى اللغة الصينية وبدراسة كتاب ألف ليلة وليلة.

لقد كان حدث السفر إلى الصين، بالنسبة للسارد، أول باعث له على التمسك بوجوده في زمن يصعب فيه الصمود أمام اغتراب مفعج ستشهده البشرية ويحصد أرواحا كثيرة، ومع ذلك فإن السارد سيدفع بشخصياته إلى التحرك وتحرير ذواتها لتحكي عن قوتها الإبداعية في خضم انفصالاتها المتلاحقة مع العناصر الخارجية عن الذات، فأسند لشخصية يحيى نسج عالم روائي تنفّس فيه شخوص الرواية عن ذكرياتها الماضية، وتعيد علاقاتها في تواصل افتراضي رغبة في تحقيق أحلامها.

يقول السارد عن يحيى: "لقد فكر في البداية أن تكون هذه الرواية التي ينوي كتابتها، تنطلق تحديدا من علاقته مع صديقته الأمريكية جوليا التي سبق له أن عاش معها قصة حب مثيرة، قبل أن تفرق الأيام بينهما ويعود هو إلى بلده... ظلت الرسائل تتبادل بينهما بشكل أسبوعي، كما فكر أيضا أن تشمل هذه الرواية حكايات أيام الحجر الصحي التي يعيشها وكيف يقضيها يوما بيوم، ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة، ثم بعد ذلك فكر أن يطلق خياله لينطلق في أي اتجاه يريد، لكنه قد قرر أن يجعل من هذا الخيال حصانه الجامح المجنح الذي سيخلق به في عوالم روائية تجمع بين الواقع والخيال في بوتقة واحدة"¹⁸

إن الرواية تعلن منذ ولادتها عن سرد تندمج فيه أحداث زمن الواقع "كوفيد 19" الذي غير من رؤية يحيى للحياة المعتادة وقوم فيه عادات في تعامله مع بيت الزوجية، وفي حياته الإبداعية التي اعتكف على لزومها بشكل بورخيسي، بزمّن الإبداع المثقل بتحويلات تجعل الذات تعي قيمة وجودها، فتعيد بناء علاقاتها مع ذوات افتراضية في العالم الفيسبوكي، بحيث شغل يحيى وجوده اللحظي في أزمة كوفيد بالتفاعل مع تعليقات متتبعيه بفعل القراءات

¹⁸نظر نور الدين محقق، 2020 الحياة في زمن الموت، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى: 2022، الصفحة: 8.





المختارة من قصائد عربية مستعبدا هاجس الإصابة بكوفيد، ومركزا على وجوده المستقبلي بالتفكير في تحديه ورغبته القوية في الكتابة كأداة لتحريك عالمه الأكبر من عالم الواقع نحو أفق لامتناه.

نكتشف، في محاولاته، بعض العادات التي ألفتها شخوص الرواية قبل زمن كوفيد 19 في الحياة المعتادة، من قبيل عادة التدخين التي تسببت في إحداث قلق لشخصية يحيى في مواجهته لخطر الموت، وفي صعوبة التخلي عن عادة التدخين تصور لنا الرواية تعرض حياة يحيى للخطر من أجل الحصول على نشوته الذاتية من التدخين ورغبته الملحة في تركه، فيؤول لنا السارد هذه اللحظة الاستراتيجية للحدث بإسقاطها على مقولة شهيرة نصها ترك التدخين سهل جدا، لقد فعلت ذلك آلاف المرات.

تحليل مقولة مارك توين هذه على صعوبة تحدي الإقلاع عن عادة التدخين الذي قد يبدو سهلا، لكن في زمن الموت هل سيكون التوقف عن التدخين بالنسبة ليحيى سهلا أم أن الأمر سيستمر ما بعد كوفيد؟. وتتضح لنا في الرواية حالة الهلع والخوف التي عاشها أفراد المجتمع في مواجهتهم للوباء، بحيث سيصور السارد هذا التحول في طريقة الحياة وهو يتحدث عن شخصية يحيى الذي سيخرج من بيته في فترة الحظر، راغبا في اقتناء سيجارة بحيث يصف إحساسه في سيرورة من الخوف والقلق، وتوجس الاقتراب من الموت أو الإصابة بالمرض العدو الممتكر أو المتخفي عن ناظريه الذي يتربص له.

يتذكر يحيى علاقته الوطيدة بالسجائر التي لم يستطع التخلص منها، ومن العادات التي تعودت ذاته على متابعتها نجد علاقاته الحميمة والوطيدة مع صديقاته، فيتذكر مآل حبيبته السابقات اللائي عشن في كيانه الحاضر برؤية مغايرة عن زمن الماضي، ويوظف صلة الصداقات بين شخصيات الرواية كدليل 19 في تحريك مستمر ومتصاعد لموضوع الموت { زمن كوفيد 19 }، فيتشكل القالب المحكي في التواصل بين الشخصيات والتعبير عن عوالمها بواسطة العالم الافتراضي، وعن بعد في وضعيتي العالم الواقعي والتخييلي.

"





لقد اعتبرت شخصية يحيى، في موقعها السردى، مؤولا مباشرا على الشخصية البطولية لأنها المنقذة روحيا من الاضطراب والقلق والمخاوف التي تتسلل إلى عقول وقلوب الشخصيات في تحديها لزمان كوفيد، بحيث تبادر إلى المساءلة والتضحية والتفاني في العيش على حبها²⁰.

2-الذاكرة وتحرير الذات من سلطة الموت:

من التجارب التي صنعها السارد وأعذبها في رؤيته السردية تجربة يحيى مع صديقه الأمريكية جوليا، تجربة يتحدى من خلالها يحيى سطوة الموت ويبني، في العالم التخيلي، حياة تفيض بالحب والجمال والحرية، ويحرر ذاته من زمن الحاضر الذي يتمثل فيه الموت شخصية رمزية حاضرة في الأذهان بأشكال تبعث على العزلة والتوجس والحيطة من أي ردة فعل، يمكن أن تؤدي إلى فقدان حياة المقربين أو أفراد المجتمع.

يغدو زمن كوفيد 19، بوجوده وشراسته على الذات، باعثا قويا على جعل شخصية يحيى وشخصيات الرواية تبتدع لها من خانات الذاكرة وذخائر معارفها قيما جمالية وإنسانية بناءة في الحياة، وذلك للتغافل والعيش في الأنوار المشعة من الذات في ظل عتمة الوباء التي خيمت ردحا من الزمن على عقول وقلوب وأجساد وأرواح البشرية، ومن ثم نجد أن الرؤية السردية للسارد لا تأبى لشخصياتها إلا بتحد قوي لرفض الانهزامية ضد حياة مكبلة لجماح الذات، ولحياة تتوق الذات لتحقيقها رغما عن وجود الوباء، فتلتصق من الحكاية تأثيث فضاء يتيح لها إمكانات التحرر للروح ببواطن مشاعرها ورغباتها.

ستعجز الذات على إخراج هذا التحرر إلى حيز وجودها الفعلي، إذ نجد مرة أخرى مع شخصية يحيى واعترافه في رسائله النصية لحبيبته السابقة، وفي زوبعة مدوية مع مشاعره، وعلى حين غرة، يعبر عن حنينه إليها وميله من العيش قيد الحظر الصحي، وعن أزمة المفارقات التي يعيشها الرجل العربي في صراعه مع سلطة الأهل ورغبتهم في الارتباط بالوسط العائلي.

²⁰بد اللطيف محفوظ ، آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي ، من منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى: 2008 ، الصفحة : 98





إن هذا الإشكال كان قائما في حياة يحيى قبل زمن كوفيد 19 بحيث أجبر على الزواج من جميلة، ابنة عمته، لكنه يحول ذكرى حبيبته السابقة إلى صداقة بريئة بينهما على الرغم من علم زوجته الحبلى بالحياة من ملهمها الذي يصارع الموت من أجل الحياة. وتكتسي هذه التجارب غرابتها من تفكير يحيى في كل علاقاته في آن واحد، كأنه يرغب في إعادة تقييم علاقاته الماضية والحاضرة، كما أنه يجعل من هذه الذات متقبلة لأفعال هذه الشخصية ومتصالحة معها وعلى علم ببعضها، ومندمجة مع عوالمه التي يفر منها كلما سنحت له متعة التيه والذوبان في عالمه المسمى بالغريب.

- إن هذه التجارب التي طرحت في رواية " 2020 الحياة في زمن الموت "، تشير إلى تأملات من السارد ودعوة منه إلى الربط بين أحداث وتناسياتها الدلالية، وهذا ما نتبينه من مقولة استعارها الكاتب حول لعبة الشطرنج: " الحياة مثل لعبة الشطرنج تماما"، فنفهم من المدار الجزئي للمعنى أن الحياة تحتاج تخطيطا وذكاء لتعلم تدبيرها، وبربط معنى العبارة بتجربة يحيى في علاقته السابقة بجوليا، إذ رغم إنهاء العلاقة فلا بد من تخطيط للحفاظ عليها، متخذا من العلاقة بعدا رمزيا عميقا وتحرير الذات إلى روابط أكثر شمولية.

- وهنا تحديدا يصف الحياة التي أصبحت عليها حبيبة يحيى السابقة في مقارنته بين حياتها الماضية وحياتها في زمن كوفيد، تلك الحياة التي يحس فيها الإنسان بالعزلة والهوة السحيقة، بل تجتاحه أفكار تعمق من علاقات لا تتمحي من الذاكرة، وهذا ما حصل، أيضا، مع الشخصية جوليا وهي تتذكر حبيبها المغربي يحيى، وما يميز هذا الاسترجاع الفني في الرواية هو محاولة السارد تشبيه أو استعارة العلاقات القائمة بين الشخصيات بالعلاقات بين الهويات الثقافية والتاريخية؛ فهذه الشخصيات لا تتقبل فقط أفعالها الماضية أو عدم تحققها، بل تسقط، أيضا، انفعالاتها الإيجابية في خلق انسجامات تخترق التوافق الخاص في عوالمها لتطاله إلى عوالم متباينة ومختلفة.

لعل هذا ما يتضح في سياق حديث جوليا أثناء تذكرها ليحيى في حالة مللها من ظروف الحظر بمدينة نيويورك، في محاولة منها لبعث روح التفاؤل في زوايا أحداث التاريخ المغربي وعلاقته بأمريكا، لعل هذا يكون لها باعثا على استمرار الصداقة بينها وبين يحيى، فيقول السارد: " بحثت في محرك البحث غوغل عن نوعية هذه العلاقة بين بلدها أمريكا وبين بلده المغرب، فوجدت في الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، ما يلي (بدأت العلاقات بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية في 20 ديسمبر 1777، وهي الأيام الأولى من تاريخ الولايات المتحدة،





وتوطدت رسميا في 1787، عندما صادق الكونغرس الأمريكي على معاهدة السلام والصداقة بين البلدين، واعترف المغرب رسميا بالولايات المتحدة الأمريكية كدولة ذات سيادة موحدة. وتم إعادة التفاوض حول المعاهدة في عام 1836،²¹.

دفعت بها هذه المعلومات الموسوعية إلى الفرح والتخيل في عالمها أن هنالك ما يمكن أن يجمعها مع حبيبها السابق يحيى غير الحب، ثم يتضح كذلك عندما تصف لنا عائلتها وثقافتها الراقية، وإتقانها للعبة الشطرنج من بين أفراد العائلة. إن لعبة الشطرنج مؤول في الحكاية على الذكاء ونزعة الانتصار التي اتسمت بها شخصية جوليا على أفراد عائلتها، ووسيلة لصرف الملل والسأم والوحدة التي كانت تتتابها كلما عاودها الحنين إلى حبيبها المغربي يحيى، وهو الشعور ذاته الذي يعيشه كلما استحضرها في ذهن.

تتماهى جوليا في وجودها مع وظيفة الشطرنج، وهذا ما كان يحيى بأمس الحاجة إليه في زمن كوفيد، لكن جوليا لم تستطع الظفر في وجه التحديات بوجود يحيى معها. نلاحظ، إذن، أن زمن الموت وتدخله في تغيير مجرى الأحداث على الشخص في واقعها، أجج من تصاعد الذكريات المؤلمة لديها ورمى بها في زوبعة من الذكريات والتخيلات التي، إن تأملناها، سنسمها بالاغتراب الذي تعيشه الذات المبدعة في رؤيتها للمجريات، وذلك ما يدفعها إلى التساؤل والتفكير ثم استرجاع أفعال غير مكتملة أو لم تتحقق بغاية اصطناع عالم مختلف عنها.

يظهر لنا يحيى، في المقابل، الشغف المتواصل للذات المبدعة خاصة الجانب الإيروسي الذي يمثل نقض الموت، والرغبة في الاستمرار ولو افتراضيا في تفجير الطاقة الإبداعية وتحريرها من قيود المجتمع وقيود الموت المحيط بها. وفي السياق نفسه، نجد حوارا افتراضيا يدور بين يحيى وناتالي من خلال رسائل نصية، بحيث يبدي يحيى إلحاحه في إعادة إحياء التواصل مع حبيبته السابقة ناتالي كوسيلة جديدة للهروب من وقع الحظر وعبثية الموت المحيط به من كل جانب.

²¹نظر رواية نور الدين محقق، رواية 2020 الحياة في زمن الموت، من منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى: 2022 الصفحة: 36





تتمثل رغبة يحيى في إحياء التواصل مع ناتالي في المقطع الآتي: " ابتسم يحيى وهو يخاطبها قائلاً بنبرة فيها نوع من الإغراء الخفي الذي تعرفه هي جيداً: (معذرة يا عزيزتي، كما تعلمين كنت مشغولاً مثل باقي الناس بهذا الفيروس الخطير الذي يحيط بنا من كل جانب، ويتربص بمصيرنا بشكل يدعو للخوف الشديد منه والاحتراس من هجمته غير المتوقعة لا في الزمان ولا في المكان، لقد كنت حاضرة في ذهني طوال الوقت، فأنت كما تعلمين غالية عندي، وعزيرة على قلبي .. ردت قائلة ما يلي: يا عزيزي يحيى ألا تريد أن تتغير؟ الناس تتغير وأنت دائماً متشبته بخطاباتك الغرامية ...) " ²²

تتبقى الإيروسية عند يحيى كقوة تصارع الموت من أجل التمسك بالبقاء، على الرغم من الوسط الذي يلفه شبح الفقد، إلا أن ناتالي الشغوفة بالحياة لم تبد تفاعلاً مباشراً مع حنينه إليها واختارت الانعزال في أزمة الحجر الصحي والاستمتاع بممارسة هواياتها المفضلة، والرقص لتستعوض عن إيروسياتها بحب الحياة لذاتها، والتغلب على معاناتها بالنسيان بدل أن تشاركه معاناته تحت وطأة الحجر الصحي، وتحمله مسؤوليات داخل بيت الزوجية لم يألفها كغيره من الأزواج في مجتمع يلقي بالمهام المنزلية كلها على الأنثى، ولعل ذلك من بين الأسباب الخفية التي أدت بـيحيى إلى التفكير في التخفيف من حدة الملل الذي استقر في أركان البيت وفتح سجل مغامراته مع حبيبتيه السابقتين، وتمني الرجوع بـزمن الماضي المتحرر إلى زمن الحاضر الموحش الذي عطل أحلام الشخصيات وطموحاتها في السفر والارتباط بـأماكن وبذوات جسديا واجتماعيا.

- وفي مقولة انتقاها الكاتب للممثلة أنجلينا جولي التي تقول: " أينما أكون أجد نفسي دائماً أنظر من خلال النافذة"، يتحدث السارد في هذه التجربة عن زوجة يحيى جميلة وعن سيرتها وحياتها وذكرياتهما في الطفولة مع زوجها، ويبين في هذه التجربة الحاضرة طبيعة زوجته المتفهمة لـماضيهِ وعلاقاتهِ السابقة مع حبيبتيهِ، ثم يصف هاجسها من الإصابة بـفيروس كوفيد 19، لكن هذا الخوف ينفتح في الحكاية على نافذة تفاؤل وفرح لـكليهما بـترقب مولودهما الأول في العائلة.

²²نظر ماسبق، الصفحة: 48





إن ثمة استمرارا في العيش على هذه الحياة، والحلم من منافذ بمجرد ما إن تفتح بعيون حاملة حتى تعطي للذات المبدعة جرعات من التفاؤل لخلق لحظات من السعادة، والمضي في تأويلات من الأحلام الشاعرية التي لا تتحقق إلا في عوالم الشخصيات السردية. ولعل أقوى تجربة يعيشها المبدع هي تجربة تحليق الذات بعيدا عن العالم حيث تحس بقوة الحب وحرية الحلم.

يغدو زمن كوفيد 19 فرصة من خلالها يدرج السارد حالات الجنون التي اعترت الشخصيات خاصة يحيى، يقول سيغموند فرويد: "الشخص مجنون جدا عندما يكون في حالة حب". يظهر، إذن، أن عادات الحجر الصحي، وخاصة عادة لزوم يحيى الدائم للمكتبة وقراءته لأعمال فنية وأدبية، وانفتاحه على الرقمنات والتواصلات الافتراضية في العمليات التثقيفية والتعليمية، عمقت مشاعر الحب في الحياة لديه، فكانت هذه التغييرات، بالنسبة إليه، نقلة في اتجاه الحلم في سراديب التخيل العجائبي والطواف بشخصيات الحكاية إلى سحر ألف ليلة وليلة، والرجوع إلى المشروع الذي توقف إنجاز ترجمته إلى العربية بسبب تداعيات كوفيد 19.

يعود بنا السارد من جديد بصوت يحيى ويسترجع معتقدات حول هذا الكتاب السحري، وخرافة من يقرأ ألف ليلة وليلة أنه سيموت، ولعله إحالة أولا على هذا الزمن؛ زمن الخوف من الموت دون معرفة خلفياته، وإحالة، أيضا، على سياقات خارجة عن المؤلف، تهدف إلى صرف المتلقي عن استيعاب وتأويل ألف ليلة وليلة، وما يضره من أنساق دالة على تجارب إنسانية مع قيم الخوف والخيانة والحب، والصراعات الاجتماعية والتفاعلات بين السلط الحاكمة والشعوب المحكومة.

يصف لنا السارد، في الحكاية، دهشة يحيى وإعجابه بالحكايات العجائبية وبمغامرات سير شخصيات أسطورية، كسيرة سيف بن ذي يزن مع حبيبته منية النفوس، فيستلهم من السير أبعادا رمزية لأن العلاقة بين سيف ومنية النفوس كانت مليئة بالمشاعر المتبادلة من الحب والتضحية. فالحب في هذه العلاقة الرمزية يعكس علاقة يحيى بشخصيات الحكاية ناتالي وجوليا، فيكون الحب قوة ومحفزا من أجل البقاء على قيد الحياة ومواجهة الموت. إن السارد يماهي شخصياته مع شخصيات أسطورية وخيالية في تحد مع هذا الزمن فيقول: «ظل يحيى في هذه





البيئة الأسطورية يحوم بهذه الشرفة .. وما إن نادى ناتالي حتى لبت دعوته .. والغريب في الأمر أن ناناتالي كانت هي أيضا تملك جناحين.²³، وقد استعار لجل الشخصيات أجنحة حتى تحلق بها في أحلامه الشاعرية والجمالية، مفسرا ذلك بتتبع معاني التأويل الفرويدي، وابن سيرين وهو الرغبة في التحليق قصد النأي بالذات ومنحها مبدأ السعي والاستقلالية إلى ما فوق مبدأ المتعة والابتعاد عن الألم، والتصالح مع الواقع.

لقد جعل السارد شخصياته تمتلك أجنحة لتحلق وتلتقي لتتقبل الواقع، فالطيران هنا وظف كرمزية للتحرر والالتحام بين الذوات، وهي كذلك رغبة دفينية في انعقادها من قيود زمن الجائحة؛ فنتالي تحمل عبئا نفسيا وشعورا بالاغتراب، وتجد في هذا اللقاء الرمزي وسيلة للتغلب على خوفها من الزوال، وطيرانها يشير إلى تحريرها من حاجز الخوف الذي يفرضه الموت، فيسعى السارد إلى أن يجعلها تعيد اكتشاف ذاتها وتقويمها.

أما طيران يحيى لناتالي، فيؤول إلى هروبه من ثقل الموت والاغتراب والارتباط بالحياة، واكتشاف ناتالي أن لها أجنحة هو إدراك لعمق ذاتها وقدرتها على تجاوز أزمة الموت بمفردها، لكن في الزمن الذي تشعر فيه بأمل الحياة وهو زمن التقائها بيحيى. أما تحليق الزوجة، فيفسر في رغبة يحيى تحقيق حالة من الانسجام الكلي بين الجوانب المتعددة من حياته العاطفية والنفسية، وأيضا تجاوز القيود الاجتماعية والذاتية، والتخلص من التناقضات التي تفرق بين أدوار كل امرأة في حياته.

إن إشراك الزوجة في تجربة التحليق يعد بمثابة تأكيد على فكرة الدمج بين الواقع والتخيل التي طرحها في بداية روايته، تجربة التحليق بالنسبة للزوجة حلم من يحيى بتحرير زوجته من قيود الواقع والتخفيف عنها. إن في التحليق والانتماء وحدة الجمع بين الإيروس والثاناتوس، وحدة الرؤية السردية التي تجمع بين المتناقضات فتجعلها منسجمة. وهكذا، فإن الحب عند السارد يكتسي دلالة تحررية وتجربة روحانية تتخطى حالات المتعة الحسية غير المتاحة في زمن كوفيد 19، كما أن رمزية التحليق تتم عن إعادة تقييم العلاقات بين الشخصيات باصطناع أشكال تخيلية تتجاوز قيود العادات الاجتماعية إلى جانب العادات المفروضة في زمن الحظر.

²³نظر ماسبق ، الصفحة : 84-85





يؤكد السارد على قيمة الحب في زمن الكورونا ليختار التعبير عن ذلك في استلهاماته عن قيمة الجمال والحب بناء على تجارب روائية سابقة عن الإبداع في زمن الأوبئة مثل تأثره برواية غابرييل غارسيا ماركيز، وهي رواية نشرت عام 1985 وتصب في سياق الرواية، فلذلك نجد تناسبا بين عنوان الحب في زمن الكورونا وبين فصل سماه الكاتب " الحب في زمن كورونا "، ويتخذها منفذا ليستوحي منه روايته التي سيكشف من خلالها أن التأمل في الحياة، بجانب زوجته جميلة وهي على المسمى الحرفي رائعة، يبعث على روح الأمل والتفاؤل، فيسيح بجولاته التأملية في الاستدلال والربط بين لحظات الانتشاء من جرعات الأمل في الحياة وتذوق قراءات ترسبت في الذاكرة، استحضرها السارد في صوت شخصية يحيى الذي كان يتأمل جمال الوجود وهو يطل من نافذته متأملا في صيغة يتنافذ بها الواقع مع الفكر والتخييل.

نلمح في التنافذ بين الواقع والتخييل رؤية سردية تدعو إلى مد الجسور بين الماضي والحاضر، بين شعوب العالم وثقافته، إلى الحوار بين الثقافات الغربية والعربية. إنها رؤية توفيقية تحرص على إرساء لبنة إنسانية مشتركة من خلال ذكر مجموعة من الأسماء الفكرية الألمعية أدبيا وفلسفيا ذات اتجاه عقلاني وانفتاحي من أمثال عبد الفتاح كيليطو، عبد الله العروي، محمد عابد الجابري ...

تتواشج ملامح الرؤية السردية في تأملات يحيى لمشاهد من الحديقة تعود به إلى استرجاع لحظات الطفولة في زمن تحليق سرب الحمام والبراءة من أي قيود، الشيء الذي يعكس تجربة الحياة البسيطة الخالية من مواجهات الذات في علاقتها بالفرد والمجتمع، ونعرض فيما يلي مقطعا للتدليل على الرؤية الفكرية والفنية للسارد: " تأمل يحيى من جديد الحديقة الغناء التي تتراءى أمام ناظره، وتتبع بعينه تحليقات رائعة لأحد الطيور، وظل يتابعه بكثير من الشغف، حتى غاب عن ناظره، استحضر صورته وهو طفل صغير يربي الحمام في سطح بيتهم العتيق في حي سباتة، كان يعيش تربية الحمام ..، حيث شيد أقفاصا كبيرة يجول الحمام فيها ويصول، طبعا الحمام في هذه الأقفاص حر طليق، هي أقفاص مفتوحة 24 أبوابها فالحمام طائر أليف.





لقد عنون الفيلسوف ابن حزم كتابه الشهير في الحب، وفي الألفة والألاف طوق الحمامة، هذا الكتاب الذي يصف فيه الحب بقوله: {الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد}، والحمام في هذا المشهد يؤشر للتدليل على الحبيب، والتحرر في عالم طليق بروح طاهرة تنوق إلى الانعتاق من زمن الفقد والمقصود به ذلك الفقد من الأحباء، لكن هذا التأمل في المشهد تنبعث في ثناياه دلالات فلسفية عميقة؛ فالمشاعر والتجارب التي عاشها يحيى مع شخصيات الحكاية تؤشر على فلسفة الحب الذي يربو ويزهو في فضاء لامحدود، ويألف الانسجام بين الأرواح إلى حد التمسك بالعلاقات دون تحسب للفعل الذي يحدثه تغير الزمن في الأحداث وأفعال الشخصيات.

يكون الحب في بداية علاقات يحيى مجرد مشاعر من أجل الرغبة في التمتع والتلذذ بوجود الذات والانجذاب إلى أن يتحول إلى ألفة والالتزام برغبة في العيش على مبدأ ما فوق اللذة، فالحمام، إذن، في زمن الموت رمز للانسجام والألفة والجمال الذي تحدثه العلاقات في الحكاية، ونفي لأي صراع بينها.

إن الحب في نظر يحيى قوة قادرة على تحدي زمن الموت، ولها سلطة على الزمن بالرغم مما حصل من تغييرات في مجرى الذكريات إلا أن كل شخصية ستشوق لذاتها طريقاً تحيا فيه من جديد لعبة الحب والتعلق في سمائها متحدية زمن كوفيد 19، لذلك فالسارد يمضي بالأحداث ليخلق لكل شخصية عالماً تجد فيه ذاتها وانشغالاتها سواء في السينما أو الرسم أو الكتابة، لتتحدى بها أزمة كوفيد وتبدع في نسج نتاجات تتخطى بها زمن الموت. تتجاوز الشخصيات زمن الموت إلى زمن الحياة حيث الأحلام والشاعرية والتأملات الفكرية للذات الإنسانية التي ترفع من مراتب الوعي والإدراك الوجودي للذات، ليؤكد الكاتب نور الدين محقق أن قوة الوجود الإنساني أعظم كينونة قادرة على كسر حواجز الفشل، والصمود في وجه الوباء باكتشاف قارات في الذات مجهولة عن الأنا والآخر، فيرتهن هذا الشرط عند السارد بالانعزال الذاتي المفضي إلى التأمل الفكري والفلسفي في النفس والوجود.

أسس زمن الموت، أو زمن كوفيد بإكراهاته، مرحلة انتقالية في حياة السارد وفي العالم المحيط به، وجعل الذات تدرك أن للعيش في الحياة فنا يقتضي متناقضات لتكون هنالك سيرورة، ووفقاً لتصوير آرثر شوبنهاور القائل: "من لا يستمتع بالعزلة لن يهوى الحرية"، فالعزلة شرط للحرية كونها تمنح فرصة للتفكير لدى الذات، وإعادة تقييم تجاربها مع الوسط وغيره بغاية اكتشاف حريتها اللامتناهية غير المقيدة بحدود حريات الغير.





ويمكن ربط فلسفة شوبنهاور بعلاقات يحيى مع محيطه في زمن كوفيد 19، فالخوف من الموت واختلاف نمط العيش ووجهات النظر في الحياة غيرت لدى يحيى رؤيته عن زوجته؛ فقد اكتشف فيها جوانب إيجابية، وهذا ينطبق على جملة من الأزواج الذين عاشوا انعزالاً نفسياً مع بعضهم وتباعداً جسدياً قبل الحظر، لكن زمن الموت أتاح لهم فرصة لإعادة اكتشاف أنفسهم وشركائهم، فالسعادة بالنسبة لهم تحولت إلى سعادة داخل مؤسسة الزواج. فالحرية، من هذا المنطلق، تنجلي بالعيش في العزلة لاكتشاف البون الشاسع للحرية الداخلية التي يمتلكها المبدع، يقول السارد عن يحيى متحدثاً عن زمن كوفيد: " كما اكتشفت فيه عشقه الكبير للقراءة وقدرته على سرد الروايات التي كان يقرأها عليها فاتنة .."²⁵، وفي الاتجاه ذاته تسير باقي الشخصيات؛ فكل شخصية تكتشف طريقاً جديداً تتكيف فيه مع الأحداث الحاضرة، وتسترجع أثر أحداث اندثرت تفاصيلها في حفريات الذاكرة بمجرد إثارة المشاعر نحوها لتندمج في شاعرية العمل التخيلي وتترجم إلى عمل سينمائي، أو روائي، أو لوحة تشكيلية، أو قصيدة، أو موسيقى، في عزلة الحظر.

نجد السارد يتعمق في تأملاته عن الانعزال الذاتي بتدقيق أكثر في فلسفة شوبنهاور، وآرائه حول العزلة وأهميتها في الحياة على المثقف والمبدع، وقيمتها التي تنامت في فترة الحجر الصحي، حيث يكتشف أن الإحساس بالعزلة امتياز العظماء والنخب العالية من المثقفين، لأن الانعزال يؤدي بهم إلى عزلة الفكر والصفاء الذهني، وتغذية ملكات الإبداع بتنميتها في ميولاتهم. كل هذه التأملات، وغيرها حول العيش عند شوبنهاور، كانت وسيلة عند السارد لتحقيق إبدالات معرفية ترقى إلى تطلعات اللحظة الراهنة والتحرر قدر الإمكان من تكبيلات زمن الموت المقيد لتحركات الذات.

لقد تناول السارد هذا التصور الفلسفي نظراً لارتباطه بتأملات تحت الفرد على التمرکز في ذاتيته أكثر والتمعن في إشكالاته الوجودية، وهذا يساعد على العيش بحكمة والتبصر والتعامل بحيلة مع أفراد المجتمع،

²⁵انظر ما سبق، الصفحة: 107





وبالتالي فالعيش في زمن كوفيد يلزم تزويد الفكر والعقل بمثل هذه التصورات التي تعالج الانعزال الذي أحدثه قصد إحالتها إلى فن العيش في حياة الحجر الصحي.

جعل السارد من يحيى شخصية تنبض بالحياة، وتتحرك في كل اتجاهات السرد وبشتى الآليات باعتبارها المحرك الذي يلهم أو يمد هذا العالم التخيلي بشروط الحياة وطرق تحدي الموت، بل ينشر شذراته الإبداعية والأدبية عبر مواقع التواصل الاجتماعي ويتقاسمها مع أصدقائه حتى يعطي لاغترابه وانعزاله دلالات شمولية، ويسهم في اقتراحه عليهم نتائج تصب في زمن الحجر الصحي.

في هذا السياق، يقول السارد عن جوليا: "اقترح عليها يحيى بأن تعمل على موضوع الحجر الصحي، وأن تتخذ من مدينة نيويورك فضاء لذلك، بل اقترح عليها أن تكتفي بفضاء بيتها والحديقة المحيطة به، وأن تنطلق منه لتفتح على العالم كله من خلال توظيف تقنية السكايب بحيث تتعدد شخصيات هذا الفيلم السينمائي لتشمل بلدانا أخرى غير الولايات المتحدة الأمريكية ...، أعجبت بالفكرة التي طرحها عليها يحيى"²⁶. وفي سياق آخر يصور السارد انهماك شخصية سمير في رسم لوحة تشكيلية مصورا فيها وباء كورونا، يقول: "كان سمير مستغرقا في رسم لوحة تشكيلية جديدة، لوحة رسم فيها وجه هذا الوباء اللعين، هذا الكوفيد في صورة وحش أسطوري، ورسم في مقابله وجوه الأطباء في صورة فرسان نبلاء يتصارعون معه محاولين القضاء عليه، كانت هذه الصورة رائعة بالفعل وهي تحمل هذه الرسالة النبيلة التي تشيد بدور الأطباء في محاربة هذا الوباء اللعين "²⁷

3-الإبداع بوصفه فعلا لمقاومة الموت:

تستوقفنا إحدى المقولات التي وظفها السارد في فصله المعنون بأضواء البيت العالمي، مقولة شعرية للشاعر محمود درويش حيث يقول: "من أين يبدأ العالم ؟ إنه يبدأ من بيتي"، لما تحمله من دلالات عميقة، إذ تربط العلاقة بين العلم والمكان بالمحيط الذي يترعرع فيه الإنسان؛ فالقولة تتضمن الشاعرية المتسللة إلى وعي الذات، كما تحيل

²⁶نظر ما سبق، الصفحة: 132- 133

²⁷نظر ما سبق، الصفحة: 136





على واقع مدرك، واقع هذا الشاعر مع وسطه حيث يربط الإبداع والتجربة الذاتية بالسياق الاجتماعي الذي يخرج منه الإنسان، فيترتب عن ذلك أن الإبداع نتاج بيئة حية وواقعية.

تحمل العبارة، أيضا، قوة في تأثير كلماتها على الفكر، كونها عبارة جمالية تدعو إلى التغيير والانطلاق من الواقع نحو عوالم الذات، كما أن الجانب الروحي يشير إلى كون الإبداع منطلقا من الذات وإلى الذات في اتصالها بالوجود، وبالتحرر الفكري الذي يبدأ من المكان المحسوس ليمتد إلى القوالب المعرفية التجريدية والجمالية. وتتجلى واقعية هذه المقولة في كون الفكر والإبداع يبدأ من العالم الواقعي لا المثالي، كما تضيء بعدا إنسانيا حيث لا يقتصر الإبداع على البيت وداخل دائرة الفرد بل يتجاوزه إلى مواجهة أفراد في مجابهة تحدياتهم الإنسانية.

يؤكد كل ما سبق التحولات التي طالت الذات المبدعة في ارتباطها بالبيئة المحيطة بها في علاقات بين وجود الذات وفضاء البيت، وفي سياق العزلة التي فرضتها الجائحة، فيصبح البيت رمزا للتأمل الذاتي وإعادة تقييم القيم المعرفية والجمالية، ونقطة تحول لنمط جديد من الحياة، إذ بفعل زمن كوفيد 19 اكتسبت هذه الشخصيات مصدرا عميقا لفهم العالم والتعايش معه من بؤرة الذات في علاقتها بالوجود، في تشاؤها المشترك لتجربة تحدي الموت في الرواية، واكتشاف رؤى مختلفة عن الحياة والموت.

عزز السارد هذه الرؤى في رواية " الحياة في زمن الموت "، بلون التأملات الذاتية والتفكير الفلسفي والأدبي، ثم الغوص في بواطن متون الكتب من أجل بث جرعات التفاؤل والأمل في زمن الموت، ولا أدل على ذلك مما أسنده لشخصية يحيى من تحركات نشطة في فضاء البيت؛ فيحيى، وهو في بيته، يستخدم منصات التواصل الاجتماعي كنافذة على العالم الخارجي، مما يعكس فكرة مفادها أن الاقتناع بالذات كقوة قابلة للتبلور والتحلل في شفافية وبالتكيف مع أي فضاء هو ما يؤكد صحة الفكرة التي انطلق منها الكاتب، فاعتبر أن عقل الإنسان أكبر من مساحة العالم، لأن الذات البشرية هي المتحركة في تحديد وتمثيل وبلورة المفاهيم والقيم المحيطة بها. ليست ثمة مفاهيم في الموضوعات القيمية: الموت -الحياة-السعادة...، ثابتة أو متناخضة في التصور الوجودي، فإحساس هذه الشخصيات وتجاربها في الوجود في تغير دائم، وعلى الإنسان أن يعيش في كل انفعال واحد تجارب جديدة؛ فالموت، مثلا، يستعير لدلالاته الأصلية دلالات الخوف -العزلة- الوحدة- القلق- السجن...، وبذلك فشخصية يحيى في الرواية تمثل الحياة في أبعادها الدلالية التي تمنحها لها إرادة السارد من تفاؤل وتأمل وقوة ومواجهة، ومثالا للإبداع والتعبير عن الذات، والتفاعل الإيجابي وللهوية والإبداع.





خاتمة:

إن هذا التغيير الزوبعي الذي حصل في زمن كوفيد 19، خلق ثقلا في الشعور الإنساني في مواجهة صراعات الحياة اليومية والوجودية، وهذا ما نلمحه في إشارات السارد خلال استلهامه لقولة كافكا التي يقول فيها: "يا له من جهد أن تبقى على قيد الحياة"؛ فكافكا يبرز المعاناة المرتبطة بالوجود نفسه، حيث إن مجرد البقاء على قيد الحياة يتطلب جهدا كبيرا. توحى القولة بأن الحياة ليست مجرد استمرار مادي، بل صراع دائم من الشكوك، والخوف، والعجز الذي يحيط بالإنسان، والبقاء ليس عملية تلقائية، بل يقتضي إرادة وتماسكا.

لعل هذا ما يوضح فلسفة كافكا التي ترى الحياة، لكنها في الوقت نفسه مساحة للسعي من أجل معنى حتى لو بدا بعيد المنال، كما تتطوي القولة في ثناياها على عبثية؛ فبينما يبذل الإنسان مجهودا كبيرا للبقاء، نرى الوجود يغوي الذات بمعان ملتبسة، وهذا الشعور العبثي يربط القول بفلسفة الوجودية التي تركز على معاناة الإنسان في عالم يفقد إلى المعنى. وإذا ما ربطنا القولة بثيمة الموضوع، فإن البقاء في زمن الموت تعبير عن المعاناة الوجودية التي يعيشها الأفراد أثناء زمن كوفيد 19، فيحى، كشخصية بطل، يجسد هذا المعنى حين يحاول الحفاظ على علاقاته بأصدقائه والتعبير عن ذاته، والبحث عن معنى للحياة في عزلة فرضها زمن الموت.

إن رواية " الحياة في زمن الموت" تكشف لنا في النهاية أن الموت لا يمثل نهاية الوجود بقدرما يشكل لحظة لإعادة مساءلة معنى الحياة وقيمها، فقد استطاع الكاتب نور الدين محقق أن يحول تجربة كوفيد-19 من حدث تاريخي عابر إلى فضاء سردي غني بالأسئلة الفلسفية والإنسانية، حيث تتقاطع ثنائيات الحياة والموت، والحضور والغيب، والعزلة والتواصل، والواقع والتخييل في بناء رؤية تؤكد قدرة الإنسان على تجاوز الأزمات عبر الإبداع والحب والذاكرة الموت في العمل الأدبي يشيد من طرف الرؤية السردية للذات التخيلية، ولا يمكن لدلالة الموت أو موضوعته المباشرة أن تمثل لنا اختزالا مطلقا يتماهى مع الدلالة الأصلية للموت، لأنه تجربة تترجمها أحاسيس الكاتب إلى انفعالات، وفي كل تجربة يكون اكتشاف من المؤولات التي تدل بدورها إلى تمثيلات عن موضوعات من الموت في سيرورة لامتناهية من السياقات الدالة على موضوعته، وكما عبر عنها شارل ساندرس بورس بالسيميوزيسية التي تنشط في ذهن الذات التي تحول موضوعة الموت في سياقاتها إلى موضوعات مماثلة للموت في معناه الأصلي.





ينطبق الأمر نفسه على رواية " الحياة في زمن الموت"، فالكاتب نقل موضوعة الموت من تمثيلها المباشر إلى موضوعة في تأويلها بحدث كوفيد، ثم من تمثيله في الموضوع السردى إلى تأويله في سيرورة من الرمزيات، ولعل هذا بالتحديد ما يميز الأعمال الأدبية في كتاباتها عن مواضيع تجريدية وربطها بالواقع.

وبذلك ينجح النص الروائي في نقل دلالة الموت من معناها المباشر إلى أفق رمزي وإنسانى أحب، يجعل من الحياة فعلا مستمرا للمقاومة وإنتاج المعنى، وهوما يمنح الرواية قيمتها الفكرية والجمالية، ويجعلها نموذجا للرواية التي استطاعت تحويل تجربة الجائحة إلى خطاب أدبي يعمق التأمل في الوجود الإنسانى.

المصادر والمراجع:

_عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي: نحو تصور سيميائي، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى 1429.

نور الدين محقق، رواية 2020: الحياة في زمن الموت، منشورات الاختلاف، الطبعة 2022.

-سعاد بن سوسي، السيرورة السيميائية ومشروع الدلالة المفتوحة، مركز الكتاب الأكاديمي، الطبعة 2018

